الحلقة (٢٠)

في هذا الحلقة أحاول أن أعطي مدخلا مهما في جانب لابد منه لكل باحث، وهو **التفكير العلمي**، والتفكير أنواع، هناك التفكير الشائع العادي الذي يمارسه كل منا في حياته العامة، هناك نمط من التفكير يسير وفق قواعد دقيقة صارمة لكي يصل إلى نتائج محددة وهو ما يسمى بالتفكير العلمي، **وعرف لدى البعض بأنه: النشاط العقلي الهادف الذي يتصرف بشكل منظم في محاولة حل المشكلات ودراسة الموضوعات وتفسير الظواهر المختلفة وفق منهج واضح أو معين دقيق**، فهنا إذن التفكير العلمي هو نمط من التفكير أو نوع من التفكير، له سمات خاصة لا بد أن يتصف بها الباحث حتى يوسم تفكيره بأنه علمي، وبما أن البحث سمي بحثا علميا فإذن لا يمكن أن يوجد باحث علمي دون أن يفكر تفكيرا علميا، فهو من شروط الباحث التي لابد منها، ولأهميته أردت الإشارة إلى بعض النقاط في هذا الموضوع إتماماً للحديث عن مناهج البحث.

ما صفات هذا التفكير العلمي؟

هل له صفات معينة؟ نلاحظ أنه ذكرت له عدة من الصفات منها:

١.الدقة والضبط في العرض والوصف والتحليل.

التفكير يتم عبر مراحل، والبحث يتم عبر مراحل، هناك وصف يعرض من خلاله الباحث الموضوع الذي يتناوله، ثم هناك مناقش قبل المناقشة لا بد أن يحلل هذا الموضوع إلى جزئياته التي تركب منها، ثم يبدأ في مناقشته، فالتحليل شرط أساس أو عنصر أساس في التفكير العلمي ما لم يصل أو ما لم يعرف ويفكك ويحلل هذا المركب كيف يمكن أن ينتقده؟ كيف يمكن أن يعرفه معرفة تامة؟ الشيء كأنما هو مغلف، لا بد أن تفتح هذا المغلف جزءاً جزءاً وتخرج ما في باطنه حتى تعرفه ويظهر واضحا أمامك، وهذا التحليل هو الذي يقوم بهذه المهمة.

٢.البحث عن الأسباب: ما من شيء إلا وله أسباب سببته، فوجد من أجلها، فهنا حينما ينظر الباحث عن الشيء بغض النظر عن أسبابه يكون نظره قاصرا، ومن هذا الباب يتطرق الكثير من المشكلات والأخطاء إلى الأحكام التي يحكمها الناس في حياتهم وفي سلوكياتهم، حينما يقال لهم عن حادثة معينة لا يخضعونها للتحليل ولا للأسباب ولا لمعرفة الأسباب، وهل هذه الأسباب ممكنة أو غير ممكنة، لا يخضعونها لشيء، مباشرة يصدقون الحدث فيأخذونه وينقلونه، وقد يكون مجرد شائعة لو وقف معها أول من استمعها وحللها وحاول التعرف على أسبابها لوجد أنها لا يمكن أن تصح، ولا يمكن أن يكون لها وجود، لكن بما أن طريقة التفكير العامة: القبول لما يلقى دون نظر أو تمحيص؛ فهنا تظهر العديد من المعلومات التي هي أقرب إلى الأسطورة في أحاديث الناس، والمعلومات الكاذبة التي لا أساس لها من الصحة، في حين أن البحوث العلمية يقل فيها الخطأ، لماذا؟ متى تقل؟ إذا كان صاحبها دقيقا في عرضه وفي تحليله وفي تتبع الأسباب ونحو ذلك من الأمور.

٣.أيضا قالوا من صفات التفكير العلمي التراكم المعرفي: هو يستفيد من المعارف السابقة ويراكم عليها ويبني عليها، فلا يبدأ كل مرة من الصفر، وإنما هذا التراكم معتبر، فالتراكم العلمي يؤدي دائما إلى تطور وإلى جديد، لأن التطبيق دائما يثمر علما، والعلم يثمر تطبيقا، وهكذا، المسألة جدلية، أيِّ علم يكون له ثمرة بالتطبيق لهذا العلم، إذا طبقنا هذا العلم ظهرت الجوانب السلبية في التطبيقات، فأورثت لنا علما جديدا وهكذا، وبهذه الروح تطورت الحضارة الغربية الحديثة

تطورا كبيرا لأن النقد العلمي عندهم صارم لا هوادة فيه، لابد من تطبيقه ومعرفة الأخطاء وتلافيها مباشرة وإعادة التصويب مرة بعد أخرى، لأنهم لاحظوا أن العلم يثمر تطبيقا والتطبيق يثمر علما، وهكذا ساروا به فطوروا أنفسهم في علومهم ومعارفهم وتطبيقاتهم، فهذه من سمات التفكير العلمي.

٤.**كذلك الشمول في التفكير أو الكلية في التفكير:** لا يكون الإنسان منحصراً في جزئية أو في جوانب من الموضوع الذي يدرسه، لا بد أن ينظر له نظرة كلية تكاملية شاملة، فالكلية مع الجزئية لابد أن تتكامل، ولذا من سمات البحوث أن يكون لها موضوع أو عنوان، ثم هذا العنوان يتفرع إلى جزئيات أقل من الكلية الكبيرة، وتعتبر كليات صغرى، وهكذا يتدرج فيها حتى يصل إلى أصغر جزئية التي هي المسألة، فإذا نظر الناظر في خطته وجد أنها منطقية ومترابطة ومرتبط بعضها ببعض، ليس فيها تناقض وليس فيها تعارض وليس فيها نقص وليس فيها استطرادات وزيادات، لماذا؟ لأن سمة التفكير العلمي الربط بين الكلية والجزئي في شمول تام.

٥.**كذلك ما يمكن أن نسميه السننية أو القانون:** بمعنى أنه يتأسس على سنن وقواعد معينة، فهو ينطلق من قواعد ويصل من خلال تفكيره إلى سنن وقوانين تحكم الظواهر وتحكم الأحداث وتحكم الأشياء، أو قانون كلي بمعنى حكم كلي يستغرق ما تحته، فإذن لا بد من وصول إلى الحكم الكلي أو إلى السنة العامة التي تندرج تحتها الجزئيات، فهو يصدر عنها ويعود إليها، ويستنبط هذه الكلية ليستفيد منها في الموضوعات الأخرى.

٦.**اليقين:** لا بد أن تكون الأشياء التي يؤسس عليها أو أدلته يقينية، لا يؤسس على أشياء ظنية يمكن ألا توصله إلى يقين، لابد من الوصول إلى اليقين العلمي والتدقيق في شواهده وفي أدلته لكي يصل منها إلى اليقين، طبعا هنا قد يكون اليقين نسبيا، وهو ما يسميه العلماء بالأدلة الظنية، لكنها تصدق في الغالب.

في مقابل الصفات التي يتصف بها التفكير العلمي، هناك عوائق قد تعرض للإنسان فلا يفكر تفكير علمي،

من أهم هذه العوائق:

١.**عوائده في التفكير التي تَعوّد عليها:** يعني قد يكون تربى في بيئة لا تعوِّد على التفكير تعوِّد على الحفظ والتلقين، وبالتالي هو يحفظ لكن لا يفهم، وهذا عيب كبير يحول دون الفكر العلمي الناضج، فمن تعوَّدَ على التلقي دون فهم لما يتلقى فلا يستطيع أن يفكر تفكير علمياً، وقد وجهنا الله عز وجل إلى أهمية التفكير والاعتبار والنظر والسير في الأرض والاعتبار بأيام الله والاعتبار بالأمثال وغيرها، لماذا؟ لأنه يريد منا أن نبعث تفكيرنا وأن يكون تفكيرنا حياً وحاضراً، لأن الضلال في الغالب يأتي حينما يغيب الفكر، حينما يغيب التفكير يضل الإنسان، ولذلك الجاهليين ضلوا باتباعهم لآبائهم دون تفكير ودون إخضاع هذه العوائد أو العقائد التي اعتقدوها للتفكير والنظر والتحليل، ولذلك قال الله عز وجل: { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} لأن عقلية الجمع التي تريد مصادرة التفكير، الله عز وجل يوجههم إلى أن يتحرروا منها وأن يفكروا بشكل فردي أو بشكل ثنائي، لأن التفكير بشكل فردي أو بشكل ثنائي يحرر الإنسان من عقلية المجموعة، وبالتالي يعود إلى ذهنه.

أحب أن أضرب مثلاً على تأثير البيئة في الحد من التفكير في حادثة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، لما كان القرشيون قد قرروا بعد أن فكروا وكشف الله عز وجل مكرهم فكروا وفكروا وأخيرا توصلوا إلى أن يقولوا إنه ساحر، وقالوا إن سحره ليس نفثاً ولا عُقداً، وإنما هو كلام يأتي به فيفرق به بين المرء وزوجه، وإلى آخره، فأشاعوا هذه الإشاعة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذات يوم دخل إلى مكة الطفيل الدوسي، وهو سيد في قومه، فخشوا أنه إن أسلم انتشر الإسلام، فعملوا دعاية له فحذروه تحذيراً من النبي صلى الله عليه وسلم، وبالرغم من أنه رجل عاقل ويفكر وحكيم

إلا أن شدة الدعاية جعلته كما قال:"حشوت أذني كرسفاً " أي قطناً حتى لا يسمع النبي صلى الله عليه وسلم، فوصل إلى هذا الحد مع أنه رجل كان يستخدم عقله، لكن التجهيز الذي جاء حوله والهجمة الإعلامية التي جاءت عليه أفقدته عقله فاستسلم من دون أن يشعر، ووقع ضحية لدعاية هؤلاء القوم، ولكن لما أراد الله به خيراً يقول: فلما كان الليل وذهب الناس من حولي، قام محمد صلى الله عليه وسلم يصلي عند الكعبة عند البيت، ففكرت؛ أنا رجل عاقل لي عقل وأفكر وأستطيع أن أحل المشكلات وأنظر، سيد في قومي، فأزال من أذنيه هذا القطن وسمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسمع كلاماً في غاية الإحكام والروعة والعلو والسمو، فما كان منه إلا أن أسلم.

فهنا مصادرة العقول بالإعلام وبالبيئة أو بنحوها من المشاكل التي قد تصادر الذهنية وتطمس التفكير، تجعل الإنسان غير مفكر وبالتالي مشلول الذهن وغيره، فحري بطالب العلم أن يكون مستحضرا لعقله مراقبا لله سبحانه وتعالى في هذه الأمور، لأنه أمانة عنده من الله سبحانه وتعالى: { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا }، ولذلك نبه الله عز وجل العقل كثيراً، ونبه الإنسان لاستخدام الفكر والسير في الأرض والنظر والاعتبار، لأن العقل الحاضر المتجرد من الهوى يوصل إلى الحق ولا يباعد عنه، ولا يحول دونه ودون الحق، وإنما الذي يحول دون الإنسان ودون الحق الأهواء والبيئة ونحوها مما يكون عارضاً ووسيطاً بين الإنسان وبين عقله، فإذن طريقة التعليم والتعلم من الأشياء التي تحول دون التفكير، إما أن تصنع إنساناً مفكراً، وإما أن تصنع إنساناً غير مفكر، وقلت إن طريقة التلقين من الطرق التي لا تصنع التفكير، هي تعين على إيجاد تراكم معرفي ومعرفة نعم، لكنها لا تصنع مفكراً، فلذلك لا بد أن نجمع في تعليمنا بين الإلقاء والتفكير، بين التلقي وبين التدريب على التفكير فيما يلقى على الطلاب، كذلك الطالب الأصل أنه حينما يلقى إليه معرفة أن يفكر فيها ويحللها ويتفهمها، فالتفهم أو الفهم شرط من شروط التعلم.

٢.**أيضاً قد يكون عدم الثقة في النفس يقول** لا أستطيع أن أفكر وهو لديه القدرة لكن لا يستطيع أن يفكر، أو لديه كسل فكري بمعنى كسل عقلي، لا يريد أن يتعب نفسه في التفكير والتحليل والنظر، فهذه من العيوب من عوائق التفكير العلمي.

٣.**التعود أن يكون عادة للإنسان أنه يأخذ ولا يعطي** يأخذ دائما المعلومات لكن لا يهتم بإبلاغها وبأدائها، مع أن العلم أمانة لا بد لمن تلقاه أن يبلغه وأن يفيد الآخرين به، وإلا كان عبئاً عليه ومسؤول عنه يوم القيامة؛ (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع وذكر منها وعلمه ماذا عمل به الحديث) هل طبقه هل بلغه هل هل...إلخ.

٤.**البيئة المحيطة بالإنسان** وقد ذكرت نموذج لها.

٥.**ضعف الإدراك**: وهذا قد يكون عيب في الإنسان نفسه، عيب خلقي بأنه ليس لديه القدرة، مستواه الذهني متدني قد يكون.

٦.**ومن العيوب الاجتماعية التي هي من البيئة مرجعها البيئة ولكن يمكن أن تخص لأهميتها التعصب**: قد يكون التعصب سبب من أسباب قتل التفكير والحيلولة دونه ودونه، فيعرف الإنسان أن هذا حق ولكنه لا يريد أن يفكر في أدلة هذا الأمر، ولا يريد أن يرضخ للحق تعصبا لباطله، فحينما يكون متعصباً بهذا الشكل نجد أنه حتى يحاول أن يعتسف الأدلة والأفكار حتى يصل بها إلى مراده، ويتجاهل ما لا يناسب مع اتجاهه من الأفكار، وهذا من أخطر الناس على الفكر، ذلك الذي يكون متعصبا لمذهبه، ويكون عنده قوة في الجدال وفي الحجاج وفي المناقشة، هذا من أخطر الناس، لماذا؟ لأنه ينتقي الأدلة التي تلائمه، ويتغاضى عن الأدلة التي لا تلائمه، وهذا يسمونه التفكير الأيدلوجي في العصر الحديث، هذا التفكير الأحادي الاتجاه الذي يريد أن يقر مذهبا معينا أو اتجاها معينا ويتجاهل ويسقط غيره من الاتجاهات، لماذا؟ لأنه لا

يلائمه ولا يخدم وجهة نظره أو لا يؤيد مذهبه أو نحو ذلك، وبالتالي نجد أنه انتقائي في أدلته، انتقائي في استدلالاته، في أخذه، في عطائه، يتجه تجاه إسقاط الآخرين وتعزيز ما يذهب إليه، هذا من أسوأ أنواع التفكير التي تتضمن الخداع والغش للأمة، وهو نتيجة البغي والظلم فالله عز وجل قال عن الإنسان: {وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا }، وقال:{ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) }من سورة البقرة.

٧.**يقابل هذا: التقليد بلا حجة** طالب العلم المفترض فيه أن يعرف الحجج ليس كالعامي، العامي قد يكون يشق عليه أن يقال ما حجتك في كذا وما حجتك في كذا، لكن طالب العلم المفروض حينما يكتب أو يفكر أن يكتب بعقلية علمية وبأدلة واضحة، لا أن يسير وراء غيره هكذا سيرا بدون حجة أو بدون دليل.

هناك مهارات للتفكير العلمي مهارات قد يستخدمها الإنسان أثناء جمعه للمعلومات، ومهارات قد يكون في مرحلة معالجة المعلومات، ومهارات لتوليد أفكار من المعلومات، ومهارات لتقديم ونقد هذه المعلومات، يحتاج في كل مرحلة من مراحل البحث إلى مهارة معينة، ويحتاج أيضا إلى مهارة الاستدلال، هذه المهارات الخمس **مهارات أساسية لابد للباحث منها.**

١.**فعند جمع المعلومات فمن المهم أن يكون متدربا على الملاحظة والمقارنة والتصنيف والترتيب** لأنه يحتاج هنا إلى معلومات يجمعها، فإن لم يكن لديه قدرة على التمييز والتصنيف ومعرفة الموضوعات؛ قد يمر عليه أشياء كثيرة لا تستحق أن تجمع، فتتضخم لديه المادة العلمية بشكل كبير وهو لا يحتاج إلى الكثير منها، فالملاحظة أمر مهم، وكذلك المقارنة والتصنيف والترتيب.

٢.المهارة الأخرى عندما يبدأ في معالجة المعلومات، عندما يجمع المعلومات **يحتاج إلى التطبيق والتفسير والتلخيص والتعرف على العلاقات والأنماط**، وكذلك يحتاج إلى ما ذكرناه من **مهارة الاستدلال**.

٣.مهارة الاستدلال أساسية لأنه سيناقش هذه المادة العلمية التي جمعها، سيعمل معالجة لها، من ضمن معالجاتها هي المناقشة والترجيح، ولا يمكن أن يتم مناقشة وترجيح إلا باستدلال.

٤.**مهارة النقد والتعرف على الأخطاء والمغالطات**، فهذه المهارت مهارات متكاملة، يحتاج إلى هذه المهارات بحسب مراحل البحث، فقلنا البحث سيكون:

أولاً: في التخطيط له.

ثانياً: ثم في جمع مادته العلمية.

ثالثاً: ثم في تحليل هذه المادة ومعالجتها.

رابعاً: ثم نقد ما يكون فيها والاستدلال على الآراء، سواء إقامة الحجة أو نقدا لأدلة الآخرين، ففي نقدك لأدلة الآخرين تحتاج إلى التعرف على مهارة النقد، فالنقد والاستدلال متساوقان مع بعض، لابد منهما في نفس المرحلة التي تعالج فيها معالجة المعلومات.

فهذه المراحل الخمس للبحث تحتاج إلى هذه المهارات المتكاملة لكي يستطيع من خلالها الباحث أن يعالج بحثه بطريقة مناسبة وجيدة وطريقة علمية.

بقي جانب معين وهو ما يسمى بالتفكير الناقد: هو نوع من التفسير لهذه المهارات، لأن التفكير الناقد يستخدم الاستدلال ويستخدم التنصيف ويستخدم الترتيب، ويستخدم الكشف عن العلاقات والأنماط ونحو ذلك، بل أيضا يستطيع طرح

الفروض على البحث أو الأسئلة على البحث، فالتفكير النقاد أساسي ومهم، طبعا له تعريفات:

التفكير الناقد هو استخدام قواعد الاستدلال المنطقي وتجنب الأخطاء الشائعة في الحكم.

التفكير الناقد الاعتماد على التحليل والفرز والاختيار والاختبار لما لدى الفرد من معلومات لأجل التمييز بين الأفكار السليمة والخاطئة.

طبعا غاية التفكير النقدي أن يصل المعرفة الصحيحة هذه هي الغاية، لأن المعارف تتداخل، وقد يكون نقص جانب سبب في الوصول إلى حكم خاطئ، فمن المهم أن يستوفي الإنسان المراحل ويرتبها منطقيا حتى يصل إلى حكم صحيح، وهذه من الأشياء المهمة، لماذا؟

قال يتضمن التفكير الناقد أو يحتاج إلى أدلة وشواهد لدعم الآراء والنتائج التي تُوصِله إلى حكم معين.

أيضا أساليب البحث المنطقي التي تعينه على فهم العلاقات وفهم الجزئيات وربط الجزئيات بالكليات ونحوها.

وقال استخدام كل الاتجاهات والمهارات الخمسة التي أشرنا إليها.

هذه الأمور لابد من التفكير، لذلك كان التفكير الناقد هو الإطار العام الذي يستخدم كل هذه المهارات، لأن الهدف في النهاية هو تحصيل المعرفة الصحيحة.

هناك خطوات لا بد منها للاتسام بالفكر الناقد (خطوات لتحصيل الفكر الناقد)

* لا بد من جمع المعلومات والوقائع المتصلة بموضوع الدراسة.
* استعراض الآراء المختلفة حول الموضوع.
* مناقشة الآراء المختلفة لتحديد الصحيح منها وغير الصحيح.
* تمييز نواحي القوة ونواحي الضعف في الآراء، وهذه تأتي أثناء المناقشة.
* تقييم الآراء بطريقة موضوعية بعيداً عن التحيز والذاتية، يبعد هواه ويفكر فيها تفكيراً علمياً مجرداً.
* البرهنة أو الاستدلال على صحة وهو ما يسمى الترجيح.

إذا رأى أنه لم يستوفِ المعلومات ويحتاج إلى مزيد من البراهين فيرجع إلى المزيد من البراهين، حتى يرى أنه قد وصل إلى الحكم بطريقة مجردة بناء على أدلة علمية واضحة وبينة، هكذا إذن نأتي على التفكير الناقد وقد ذكرته بإيجاز.

هناك أمور ذات صلة به، كالأمور أو القدرات التي تتطلبها هذا النوع من التفكير، وقد سبقت الإشارة إلى بعض منها في المهارت المطلوبة، مما يعين عليها:

* التعليم المبني على التفكير.
* القراءة النقدية.
* إجراء تدريبات، وهناك دورات متخصصة كثيرة الآن لتعليم التفكير الناقد، يحسن بطالب العلم إن تيسر له الالتحاق بدورة فيما يتعلق بتعليم التفكير أن يسارع إليها.